تمهيد

بعد مضيّ 10 سنوات على نشر كتاب "المرض بوصفه طريقاً"[1]، حان الوقت لمتابعة الموضوعات التي تناولها، والتوسّع فيها.

أما وإن هذا المشروع قد لاقى هذا الصدى الإيجابي والاستحسان الكبير. بدايةً وقبل كل شيء لدى الناس العاديين المهتمّين، ثم وبشكل متزايد في الأوساط الطبية المتخصّصة، فقد يكون علامةً على الحاجة المتنامية لفهمٍ مُرضٍ يُعيد توحيد الشكل والمضمون، الجسد والنفس.

أضفْ أن ردود أفعال المرضى والمشاركين في الحلقات الدراسية والقرّاء عبّرت عن الحاجة إلى تفسيراتٍ أخرى وأوسع، لا سيما لتلك الصور المرضية، التي لم يتناولها الجزء الأول.

علماً بأن هذه التفسيرات تتوافر الآن في شكل موسّع، واستجابةً للكثير من الإشارات ارتأينا عدم التركيز على كمّ الصور المرضية، إنما عرضها على نحو يتيح للمعنيين التعرّف إلى المنحى، الذي لا بد من مواصلة العمل فيه.

وقد تمثّل أحد الدروس المستخلَصة من الجزء الأول في المزيد من توضيح الخطوات البينية، التي تسفر عن التفسيرات، إضافةً إلى الخوض في ما يُسمى "التفكير العمودي"، الذي تقوم عليه هذه الركيزة بكاملها.

كما تبين بعد المداولات والمشاورات أنه من المفيد كذلك ليس تسليط الضوء على صورة مرضية ما بناءً على بعض الدلائل الموثّرة بنوعٍ خاص، إنما الإحاطة بها من جوانبها المختلفة. صحيح أن تفسير الأعراض والموجودات المفردة للصورة ذاتها قد يؤثّر سلباً في متعة القراءة لدى غير المصابين، ولكن مواصلة العمل لدى المصابين تغدو أشدّ خصوبةً وأكثر منطقيةً.

انطلاقاً من هذه الفكرة نشأت في هذه الأثناء سلسلة كتب الجيب "شفاء" أيضاً، والتي تعرض بالتفصيل لمواضيع عديدة ومهمة مثل

١- "المرض بوصفه طريقاً": تأليف تورفالد دتلفزن وروديغر دالكه، ترجمة د. الياس حاجوج، دار علاء الدين، دمشق.

مشكلات القلب والدوران، ومشكلات الهضم، ومشكلات الوزن، بحيث يمكن مواصلة الحوار مع الصور المرضية الشخصية وتعلّم التفسير كذلك.

بغية التمكّن من تسليط الضوء على محيط الصورة المرضية المعنية بشكل أفضل، فقد تخلّينا عن التقسيم تبعاً للمجالات الطبية الوظيفية لصالح مخطّطٍ يبدأ بالرأس وينتهي بالقدمين. علماً بأن مواضيع السرطان ومشكلات الشيخوخة شكّلت استثناءً، ووُضِعَت الأولى في البداية، والثانية في الختام. من هنا قد يسبق الصور مدخل مفصَّل ليس في رمزية العضو المعني وحسب، بل في رمزية المنطقة المتناوَلة أيضاً.

أثناء العمل العلاجي النفسي وفقاً لهذا المخطّط طرأ شيء من التوسّع في بعض النقاط، وشيء من التصحيح في نقاط أخرى. كنا قد تخلّينا في مقترحات التخليص الواردة في الجزء الأول عن مبدأ إجراءات العلاج بالمثل أو الهوميوباتي في بعض المواضع، وذلك على سبيل المثال حينما نُصِحَ المصابون بانخفاض الضغط الدموي بالوقوف وإظهار القوة، والحق أن الأمر يتعلق في هذه الحالة أيضاً بالالتزام أولاً بالمهمّة المباشرة للعرَض والانصياع لها، أي تعلّم قبول الضعف، والتدرّب على التسليم والخضوع.

لا تنفتح الطريق نحو القطب المضاد على نحو سديد ومعقول إلاّ انطلاقاً من تخليص المهمّة المباشرة. فالقوة تنمو على تربةٍ من التسليم والخضوع بمرور الوقت، ولكنها ليست الهدف البدئي، وللمزيد من إيضاح هذه الركيزة المبدئية كرّسنا لفكرة العلاج بالمثل فقرة خاصة. إلى جانب المفهوم الأساسي "المرض يجعلك صادقاً"، أخذنا بالحسبان في هذا الجزء دائماً الشكل المخلَّص للصورة المرضية، طبقاً للمبدأ القائل "المرض يكشف مهمّةً". أما الأسئلة المطروحة في ختام كل فصل أو صورة مرضية فتنصبّ على الجزء غير المخلَّص وعلى الجزء المخلَّص على حد سواء.

يُعدّ فصل "مدخل إلى فلسفة تفسير المرض" مجرد إيجاز للمقدّمات النظرية الأساسية، حيث نولي اهتماماً خاصاً لتلك النقاط التي كثيراً ما قادت، حسب خبرتنا، إلى حالاتٍ من اللبس وسوء الفهم، وتحاشياً للتكرار نُحيل هنا إلى الجزء العام من كتابنا المذكور "المرض بوصفه طريقاً". لا شك في أن المدخل إلى هذا الكتاب الجديد يطبعه جزئياً طابع ردود الأفعال على الكتاب الأول[1]، وهو يشترط من هذه الناحية الاطّلاع على هذا الأخير، ولن نمرّ على مواضيع أساسية مثل "القطبية و الوحدة" و "الخير و الشرّ" و "الظلّ"

١- المقصود به كتاب *المرض بوصفه طريقاً*.

إلاّ بصورة عابرة بهدف توفير فضاءٍ كافٍ للتصوّرات الأبعد مثل حقول التطوّر والطقوس.

كما لن يتم تكرار المواضيع الكبيرة مثل القلب، والكلية، والكبد، والتي عولِجَت إما في الكتاب الأول أو في سلسلة "شفاء". أما في حال معالجة الصور المرضية المذكورة في النصّ بشكل أشد تفصيلاً في مكانٍ آخر، فسوف نشير إلى ذلك بنجمةٍ صغيرة (*).

والحق أنه كان من الضروري تناول موضوع السرطان بكامله مرة أخرى، آخذين بالحسبان أكثر السرطانات شيوعاً عند النساء، وهو سرطان الثدي*، والتوسّع فيه بشكل كبير. فقد تبيّن أن فصل السرطان، الذي شكّل أصلاً خاتمة الكتاب الأول، كان مضلّلاً للكثير من المرضى في مقولته النهائية، ذلك أنه شدّد بشكلٍ مفرط على خطوة التعلّم الثانية، الحبّ، في حين أهمل الصراع بوصفه خطوة أولى ضرورية.

أخيراً لا يبقى لي إلاّ أن أعبّر عن أسفي لأن تورفالد دتلفزن، الذي وضع بصمته على هذه الركيزة بصورة حاسمة، قد انسحب من الحياة العامة بشكل نهائي، بحيث تعذّر عليّ كسبه إلى جانبي في مواصلة العمل، الذي بدأناه معاً.